جسور التواصل الأدبي بين المشرق والمغرب

Literary communication bridges between the Islamic East and West

عمر اسراطي[1]

Omar SRATI

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس (المغرب)، Omarsrati.28@gmail.com

تاريخ الاستلام:2021/04/24– تاريخ القبول:2021/06/05– تاريخ النشر:2021/12/25

ملخص:يسعى هذا البحث إلى إبراز بعض مظاهر جسور التواصل الأدبي شعرا ونثرا بين المشرق والمغرب، من خلال مؤلفين هامين وموسوعتين أدبيتين بارزتين تعتبران العمدة في بابهما، الأول، هو: العقد الفريد لابن عبد ربه (ت 328 هـ)، والثاني: الذخيرة في محاسن الجزيرة لابن بسام الشنتريني (ت 542 هـ). ذلك أن الأدب العربي منذ القدم إلى عصرنا الحديث قد عرف جدلية أخذ وعطاء، وتفاعلا متبادلا تأثيرا وتأثرا بين أقطاره وأمصاره بعضها من بعض.وتتجلى أهمية هذا البحث في كونه إسهام في بيان بعض خصائص الأدب بالغرب الإسلامي التي تميزه عن الأدب بالمشرق من جهة؛ ومظاهر تأثر الأدباء المغارب بإخوانهم المشارقة من جهة أخرى، ذلك أن الدراسات والأعمال النقدية المتعلقة بالأدب المغربي والأندلسي إنما أنجزت انطلاقا من التأثر بالأدب المشرقي الذي حاز قصب السبق إبداعا وتأليفا، وعلى هذا الأساس تتأتى المقارنة بين المنتوجين الأندلسي والمغربي من جهة، والتراث المشرقي من جهة أخرى. إذ لا يمكن النظر في التراث الأندلسي والمشرقي إلا في ضوء المنجزات المتصلة بهذه الحصيلة التراثية من الإبداع والتأليف جملة وتفصيلا. والسبب في ذلك يرجع أساسا إلى: الانتماء الثقافي المشترك بينهما. وعلى هذا فالعلاقة بين الأدبين وثيقة ومحكمة، وفي ضوئها يمكن الحديث عن الأدب المشرقي والمغربي على حد سواء.

كلمات مفتاحية:التواصل الأدبي، الأدب، الغرب الإسلامي، المشرق الإسلامي، التأثير والتأثر.

/iterary communication bridges between the Islamic East and West

Summary: This research seeks to highlight some aspects of literary communication bridges in poetry and prose between the Islamic East and West, through two important authors and two prominent literary encyclopedias that consider the mayor in their art, the first is: Al- 'Iqd al-Farid (The Unique Necklace) of IbnAbdRabbih (d.328 AH), and the second: Dhakhira fi mahasinahi al-Jazirra (The Treasury concerning The Merits of the People of Iberia) by IbnBassam al-Shantarini (d.542 AH). This is because Arabic literature from ancient times to the modern era has known the dialectic of give and take, and a mutual interaction that fluences and influences between its territories and regions from one another. The importance of this research is evident in that it is a contribution to explaining some of the characteristics of literature in the Islamic West that distinguish it from literature in the East on the one hand. And the manifestations of the Islamic West literati being influenced by the East Islamic literati on the other hand, as the studies and critical works related to Islamic West and Andalusian literature were accomplished on the basis of being influenced by oriental literature that won creativity and composition, and on this basis comes the comparison between the Andalusian and the Islamic West products' on the one side, and the Levantine heritage on the other side . It is not possible to consider the Andalusian and East heritage except considering the achievements related to this heritage outcome of creativity and authorship. The reason for this is mainly due to: their common cultural affiliation. Based on this, the relationship between literature is close and tight, and in the light of it is possible to talk about both the East and the Islamic West literature.

Keywords: (Literary communication / Literature / Islamic West / The Islamic East / Impact and influence)

[1] **المؤلف المرسل**: عمر اسراطي Omarsrati.28@gmail.com

1.مقدمة:

عرف الأدب العربي منذ عصوره الأولى تفاعلا بارزا سواء بين أقطاره وأمصاره بعضها من بعض أو بينه وبين الآداب العالمية الأخرى، حيث إن طابع التأثير والتأثر والأخذ والعطاء بادية على أدبنا العربي في مختلف أجناسه الأدبية.. ولعل دراسة الأدب من حيث التاريخ أو الأجناس أو النظريات... لا تستقيم إلى إذا أخذت من منظور الدراسة المقارنة بين الآداب الإنسانية بمختلف الحقب التاريخية.

أما عن جانب تفاعل الأدب العربي بعضه ببعض أبداعا وتأليفا؛ فالأمر لا يختلف كثيرا عما هو حاصل بين الأدب العربي وغيره من الآداب،حيث أنجزت الدراسات والأعمال النقدية المتعلقة بالأدب المغربي والأندلسي مثلا انطلاقا من التأثر بالأدب المشرقي الذي حاز قصب السبق إبداعا وتأليفا، وعلى هذا الأساس تتأتى المقارنة بين المنتوجين الأندلسي والمغربي من جهة، والتراث المشرقي من جهة أخرى. إذ لا يمكن النظر في التراث الأندلسي والمشرقي إلا في ضوء المنجزات المتصلة بهذه الحصيلة التراثية من الإبداع والتأليف جملة وتفصيلا. والسبب في ذلك يرجع إلى: الانتماء الثقافي المشترك بينهما. وعلى هذا فالعلاقة بين الأدبين وثيقة ومحكمة، وفي ضوئها يمكن الحديث عن الشعر المغربي والأندلسي وما يتعلق بهما من قضايا.

وبما أننا نتوخى الكشف عن جسور التواصل بن الأدب المشرقي الأدب الأندلسي والمغربي؛ فإننا سنعتمد في مقاربة ذلك على مؤلفين طارت شهرتهما في مشارق الأرض ومغاربها، أحدهما متعلق بالأدب المشرقي ألا وهو "العقد الفريد" لابن عبد ربه، والآخر متصل بأدب الأندلس والمغرب وهو كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني. واختيارنا لهذين الكتابين مبني على الأسباب التالية:

- أولا: قيمة الكتابين العلمية والأدبية والتاريخية. حيث نحسبهما موسوعتين كبيرتين في شتى مجالات العلم والمعرفة والإبداع الشعري.
- ثانيا: منزلتهما الرفيعة بين المصنفات التراثية في الإبداع والنقد والمعرفة.
- ثالثا: الخصوصية التي ينفرد بها الكتابان حيث يختص كل واحد بالتراث المناسب الذي من أجله كان تألفه.

فالعقد الفريد ينطوي على لباب حصيلة التراث المشرقي، كما تتضمن الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة على ما اختص به أهل الغرب الإسلامي ودل عليهم فكرا ونقدا وإبداعا.

وعلية، وفي ضوء ما تقدم سيكون كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه؛ منطلقا لحديثنا عن الأدب المشرقي، كما سيكون كتاب الذخيرة لابن بسام عمدتنا في الكلام عن الأدب الأندلسي والمغربي.

2."العقد الفريد":

قبل بسط الحديث عن الكتاب الجليل ' العقد الفريد ' والوقوف عند محتوياته ومنهج صاحبه فيه، يحسن بنا أن نقدم بيت يدي الحديث تعريفا مختصرا لصاحبه: ابن عبد ربه حتى يكون القارئ الكريم على علم بسيرته ومؤلفاته.

هوأحمدبنمحمدبنعبدربهابنحبيبابنحُدَيربنسالم،أبوعمر (246 – 328 هـ = 860 – 940 م):
الأديبالإمامصاحبالعقدالفريد. منأهلقرطبة. كانجدهالأعلى (سالم) مولىلهشامبنعبدالرحمنبنمعاوية.

وكانابنعبدربهشاعرامذكورافغلبعليهالاشتغالفيأخبارالأدبوجمعها . لهشعركثير . منهماسماه (الممحَّصات) وهيقصائدومقاطيعفيالمواعظوالزهد،نقضبهاكلماقالهفيصباهمنالغزلوالنسيب . وكانتلهفيعصرهشهرةذائعة . وهوأحدالذينأثرواأدبهمبعدالفقر.[...] وقدطبعمنديوانه (خمسقصائد) وأصيبالفالجقبلوفاتهبأيام.(الزركلي، 2002)

ويعدكتابه (العقد الفريد) أشهر كتبهفهو كتاب قل نظيره وعز على الناس مثيله، كتاب " عظيم النفع جليل القيمة، وافر المعلومات واسع الأفق، بحيث نراه يتحوّل بجهد صاحبه إلى سفر موسوعيّ ضخم يتضمّن كثيرا من المعارف والعلوم والآداب، التي رتبها [...]ونسّقها بحيث غدت متّصلة العرى متآلفة الموضوعات متماسكة الحلقات، تشهد للرجل بحسن البراعة والاختيار، كما تشهد له بالعلم والمعرفة وسعة الاطلاع..." (ربه، 1404هـ، صفحة 05)وقد تم له هذا التأليف تأسيسا على تُحَفٍ من الجواهر، فجاء هذا الكتاب مؤلفا من جواهر تختص كل جوهرة بكتاب. يقول: "وسميته كتاب (العقد الفريد) لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة السبك وحسن النظام؛ جزّأتُه على خمسة وعشر ينِ كتابا، كل كتاب منها جزآن، فتلك خمسون جزء في خمسة وعشر ينِ كتابا وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها: كتاب اللؤلؤة في السلطان... "(ربه، 1404هـ، صفحة 07)

أما منهج ابن عبد ربه الذي سار على عليه في التأليف ونظم العقد فقد أبان عنه بقوله: " ألفتُ هذا الكتاب وتخيرت نوادر جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجو اهر ولباب اللباب" ويضيف موضحا حدود عمله في الكتاب: "وإنما لي فيه تأليف الأخبار، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار، وفُرشٌ في صدر كل كتاب؛ وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور الحكماء والأدباء..."(ربه، 1404هـ، صفحة 04)

وعليه، فقد كان منهج ابن عبد ربه في العقد منهجا متميزا فريدا مثمرا، وقد تجلت ثمراته في المضامين "التيّ تناولها العقد، فقد تنوّعت وتوزّعت بين السياسة والسلطان، والحروب ومدار أمرها، والأمثال والمواعظ، والتّعازي والمراثي وكلام الأعراب وخطبهم وأنسابهم وعلومهم وأدابهم وأيّامهم وأخبار مشهوريهم من الخلفاء والقادة، هذا فضلا عن تضمينه كتابه كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكثيرا من الأشعار والأخبار التاريخية، وإثباته لنفسه كثيرا من القصائد التي وردت على شكل معارضات لشعر كبار الشعراء في الموضوعات التي استشهد بأشعارهم عليها." (ربه، 1404هـ، صفحة 04)

وهذا كله ليس غريبا على رجل مثله تضلع في علوم شتى وشرب من عيون الأدب المتعددة، زيادة على تمكنه من لغة العرب وأساليبهم في الكتابة ومراميهم في الكلام خير تمكن، مع ذكا ئه الثاقب وحسن تذوقه للشعر. " فالرجل في مصنّفه لم يكن مجرّد ناقل ومبوّب، بل كان صاحب رأي وصاحب ذوق يطلان في كثير من الأماكن بشكل واضح وجلّي، فضلا عن كونه شاعرا بارعا قويّ الديباجة، سلس الأسلوب دقيق المعاني..(ربه، 1404هـ، صفحة 05)

ومما أورد له صاحب " يتيمة الدهر" قوله:[من الوافر]

ومعترك تهزُ لَهُ المنايــا	دُكُور الْهِنْد فِي أيدي دُكُــور
لوامع يبصر الاعمى سَنَاهَــا	ويعمى دونَهَا طرف الْبَصِيــر
وخافقه الذوائب قد أَقَامَت	على حَمْرَاء ذَات شبا طريــر
نُجُوم تحتهَا عُقْبَانُ مـوت	تخطفت الْقُلُوب من الصُّدُور
بِيَوْم رَاح فِي سربال ليــل	كَمَا عرف الاصيل من البكور
وَعين الشَّمْس تَدْنُو فِي قَتَــام	دنو الانف مَا بَين الستــور
فكم قصرتُ من عمر طَوِيــل	بِهِ وأطلت من عمر قصير

(الثعالبي، 1983، صفحة 86)

وهذه الأبيات هي من أجمل شعره وأجوده، وشعره عموما فِي نِهَايَة الجزالة والحلاوة وَعَلِيهِ رونق البلاغة والطلاوة كما قال صاحب اليتيمة.

ومصادر ابن عبد ربه في حصيلته المعرفية التي تثري الكتاب تتمثل في مصادر دينية " كالقرآن والإنجيل والتوراة، والحديث النبويّ الشّريف، ومنها ما هو أدبيّ وتاريخيّ، كعيون الأخبار والمعارف لابن قتيبة، والحيوان والبخلاء والبيان والتبيين للجاحظ، والكامل للمبرّد وكليلة ودمنة والأدب الكبير والصغير لابن المقفّع، والأمالي لأبي عليّ القالي، ودواوين كثيرة لشعراء جاهليين وإسلاميين، وغير ذلك من الكتب التي تناولتها يداه ..." (ربه، 1404هـ، صفحة 03)وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طول باعه، وسعة إطلاعه، وغزارة مشاربه..

والملاحظ أن عمل ابن عبد ربه الأندلسي مختار من لباب اللباب؛ ليقينه بأن اختيار الكلام أصعب من تأليفه، فكان هذا الانتقاء المتميز ثمرة علمية تختص بالمشارقة وحدهم حتى قال الصاحب ابن عباد عندما انتهى إليه هذا الكتاب : «هذه بضاعتنا ردّت إلينا» (ربه، 1404هـ، صفحة 01)... وهو على حق في ذلك، ولم يكن ليخطئه الصواب؛ ولكن

هذا لا يحط من قيمة المؤلف العلمية ولا من قيمة تأليفه الزاخر بالمعارف في مختلف الحقول والميادين الأدبية والتاريخية المتصلة بالتراث العربي في شرق العالم الإسلامي. على أن هذا العمل لا يكمن اعتباره نسخة مكررة تستهلك جهود السابقين في هذا الميدان، كما لم يكن هذا التأليف مجرد تقليد على غرار النماذج السابقة في الموضوع. فالسمات الشخصية للمؤلف حاضرة في الكتاب من خلال تذوقه للآثار الأدبية شعرا ونثرا.

وعلى هذا، فكل ما قيل حول الكتاب وعن شخصية مؤلفه لا يزيدهما إلا سموا في أعلى مراتب الفكر الإنساني، لأن "المسحة الأدبيّة تبدو قويّة في كتابه بحيث يشعر بها كلّ من يقرأ العقد أو يتصفّحه. فقد أراد الرجل أن يكون كتابه «مجموعة من متخيّر الآداب ومحصول جوامع البيان» وقد وفّق إلى ذلك خير توفق؛ وسبق الكثيرين ممّن ألفّوا على شاكلة كتابه، وامتاز على غيره بالوضوح والسهولة وحسن الترتيب والتنسيق حتى غدا كتابه كلّا متماسكا وسفرا جامعا لأكثر علوم عصره إن لم نقل كلّها، هذا وقد تضمّن العقد «ما لا يقل» عن عشرة آلاف بيت من الشعر لأكثر من مائتي شاعر من العصر الجاهلي والأموي والعباسي".

(ربه، 1404هـ، صفحة 04)

لأجل ذلك فالكتاب يبقى من الذخائر النفيسة في التراث المشرقي والعربي عموما، ولا أحد يستطيع إنكار قيمته العلمية والأدبية والتاريخية، وكم أشاد العلماء به قديما وحديثا وبصاحبه ولهم في ذلك أراء وأقوال كثيرة يمكن الوقوف عليها في مختلف كتب التراجم والسير؛ مثل: "وفيات الأعيان" لابن خلكان، و"اليتيمة" للثعالبي، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي، و"بغية الملتمس" للضبي".

(خفاجي، 1992، صفحة 684)

يقول الثعالبي: "هو أُحْدُ مَحَاسِن الأندلس علما وفضلا وأدبا ونبلا وشعره فِي نِهَايَة الجزالة والحلاوة وَعَلِيهِ رونق البلاغة والطلاوة".(الثعالبي، 1983، صفحة 85)

ويقول ياقون الحموي في "معجم الأدباء – إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" : "وكانت لأبي عمر بالعلم جلالة وبالأدب رياسة وشهرة، مع ديانته وصيانته، واتفقت له أيام ولايات للعلم فيها نفاق، فتسوّد بعد الخمول وأثرى بعد فقر، وأشير بالتفضيل إليه، إلا أنه غلب عليه الشعر."(الحموي، 1993)

3."الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة ":

هو عليبنبسامالشنترينيالأندلسي،أبوالحسن (477 – 542 هـ) (1048 – 1147 م): أديب وشاعر ومؤرخ،منالكتّابالوزراء. نسبتهإلىشنترين (المسماةاليوم) Santaremفيالبرتغال.(الزركلي، 2002)(كحالة، د.ت)

ويعدكتابه" الذخيرة في محاسن أهل الجزية " أشهر كتبه وأكثرها انتشارا، جمع إلى جانب تنوع منهجه غزارة المضمون وحسن اختياره، وقد كثر الحديث قديما عن دوافع تأليفه وصناعته، خصوصا في تلك الظروف المضطربة كما تحدثنا عنها كتب التاريخ. ونجد هذه الدوافع مجملة في قول الدكتور طه حسين: " دفع صاحبه إلى تأليفه أمران: أحدهما حبه لوطنه الأندلس وحرصه على أن يثبت لها تفوقها في الأدب والعلم، وأن يثبت هذا التفوق لمعاصريه خاصة، لكثرة ما رأى من افتتان أهل أفقه بالشرق وأدبائه وإعراضهم عن الأندلس وما أنتجت من أدب وعلم، والثاني حرصه على تقليد الثعالبي في كتابه اليتيمة الذي صور أدب معاصريه من الكتاب والشعراء..."(خضر، 1393هـ، صفحة 106)

والحق أن رأي طه حسين – عندي – كان وجيها، لأن الغيرة التي أخذت ابن بسام على أهل أفق الأندلس من المبالغة في التقليد لأهل الشرق وإهمال علماء أفقهم ووطنهم كانت أكبر باعث على هذا التأل يف، بحيث لم يجد ابن بسام حرجا في الإعراب عن هذه الغ يرة تصريحا لا تلويحا وذلك في مقدمة الكتاب إذ يقول: " إلا أن أهل هذا الأفق، أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما[...] فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدورُهُ أهلَّة، وتصبح بحاره ثمادا مضمحلَّة؛ مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديما ضيعوا العلم وأهله، ويا رب محسن مات إحسانه قبله؛ وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص المشرق بالإحسان؟".
(الشنتريني، 1997، صفحة 12)

وإذا كانت هذه الغيرة الملتهبة قد فعلت فعلها في فكر ابن بسام حتى ذهبت بحسه ووجدانه وحفزته على الإسهام بالمواهب من قطوف أفنانه، بل أصبحت تلك الغيرة المتوقدة هوسا تسكن المؤلف حتى بات لا يسكن له خاطر ولا يطمئن له بال؛ إلا بعد الفراغ من تصنيف كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. فتمت لديه البغية وحصل عنده المراد من عمله؛

فأتى على ما كان سائدا عند المشرق والمغرب على حد سواء؛ من أن أهل المغرب عالة على أهل المشرق الذي يعد دائما الأصل في حين يظل الغرب الإسلامي عموما تبعا له.

لتظل غاية الأندلسيين والمغاربة لا تعدو حسن التقليد والإتباع، وبذلك كانت ثمرة هذه الغيرة؛ إفراد الأندلسيين بالمنجز الذي يستحقونه في كتاب يترجم لأعلامهم، ويحصي شعراءهم، ويجمع محاسن أدبائهم، ويُعرب عن مخزونهم التراثي في الفكر والنقد والإبداع، فكان كتابه هذا جديرا بتسمية الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. مثلما نجد للمشارقة نظائر له مثل اليتيمة والعقد الفريد وغيرهما من المؤلفات الموسوعية في التراث العربي المتصل بالأدب والسير والأخبار والنقد والتاريخ. والكتاب دون شك نسيج وحده على غرار التأليف في أدب المشارقة جملة وتفصيلا. فالكتاب قائم على نظرية مؤداها: أن للأندلسيين تراثا ينفردون به دون سواهم.

ومنهج ابن بسام في مؤلفه يقوم على غرار منهج الثعالبي في اليتيمة حيث إن المطلع على كتاب الذخيرة يجد أبوابه "قد جاءت على غرار كتاب اليتيمة إذ قسم الثعالبي يتيمته إلى أربعة أقسام تبعا للأقاليم وكذلك فعل ابن بسام حين جعل ذخيرته أربعة أقسام تبعا للأقاليم الأندلسية."(خضر، 1393هـ، صفحة 106) وقد جاءت على النحو التالي:

- القسم الأول: لأهل حضرة قرطبة وما يصاقبها من بلاد موسطة الأندلس.
- القسم الثاني: لأهل الجانب الغربي من الأندلس وذكر أهل حضرة إشبيلية وما اتصل بها من بلاد ساحل البحر المحيط.
- القسم الثالث: لأهل الجانب الشرقي من الأندلس.
- القسم الرابع: لمن طرأ على جزيرة الأندلس من شعراء وكتاب، ولبعض مشهوري المعاصرين ممن نجم بإفريقية والشام والعراق.

(الشنتريني، 1997، صفحة 01)

وهذه الأقسام جميعا تنطوي على أخبار وتراجم الأدباء والشعراء مما لم يجمعه أحد قبله خصوصا في أفق أهل الجزيرة، بالإضافة إلى الكم الهائل من الأشعار المتوفرة بين دفتي الكتاب. يقول ابن بسام: "وقد أودعت هذا الديوان الذي سميته بـ(كتاب الذخيرة، في محاسن أهل الجزيرة) من عجائب علمهم، وغرائب نثرهم ونظمهم [...]لأن أهل هذه الجزيرة – مذ كانوا – رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة، تدفقوا فأنِسُوا البحور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور؛ وذهب كلامهم بين رقة الهواء، وجزالة الصخرة الصماء، كما قال صاحبهم عبد الجليل ابن وهبون يصف شعره: [من الطويل]

(الشنتريني، 1997، صفحة 14)

رَقِيقٌ كَمَا غَنت حَمَامةُ أَيكَة وَجزلٌ كَمَا شَقَّ الهواءَ عقابُ

والكتاب إذ يجمع بين محاسن المنثور والمنظوم من منتوج الجزيرة الأندلسية؛ فهو يعد بحق مصدرا من المصادر الرئيسة في الأدب العربي الأندلسي الخالص. إذ لا يستقيم بناء تصور صحيح عن الأدب العربي الأندلسي بدون الرجوع إليه.

ومجمل القول في هذا الصدد؛ إن ابن بسام لم يكن مجرد ناقل أو جامع للأخبار والأشعار، ولكنه كان ذا حس نقدي متسم بإعمال الفكر وعمق النظر إذ "يدلي برأيه في أكثر الأحيان ويناقش الآثار والنصوص الأندلسية بعد التأكد من صحتها واستقصاء نصوصها، وكثيرا ما تكون له كما يقول بعضهم "استدراكات وتعليقات على بعض أبيات الشعر التي يذكرها، والأخبار التي ينقلها تدل على ضلاعته وكفايته وسعة اطلاعه..."(خضر، 1393هـ، صفحة 111)

والمتأمل في كتاب الذخيرة وما جاء فيه من تعليقات ونقد حول بعض النصوص يتبين أن هذا الأديب كان ذا ذوق أدبي رفيع وحس نقدي مرهف، وبصيرة نافذة كالشِهاب الثاقب، وفكر متميز بالعمق والسلامة، وبعد نظر واع بالدقائق من الكلام الجيد المختار، يقرر المراد منه مجردا من نوازع الأهواء؛ بل يضع الأمور في نصابها حسب ما تستوجبه من مدح أو قدح كلما تعلق الأمر بالمنتوج التراثي الأندلسي دون أن يكلف نفسه عسيرا أو يحملها شططا كثيرا أو يهيرا بالموازنة مع منتوج المشارقة في التأليف والإبداع سواء بسواء. وهذا ما يشير إليه ابن بسام في قوله:

"إنما انتقدت ما وجدت، وخالست ذلك الخمول، ومارست هنالك البحث الطويل، والزمان المستحيل، حتى ضمنت كتابي هذا من أخبار أهل هذا الأفق، ما لعلي سأربي به على أهل المشرق، وما قصدت به – علم الله – الطعن على فاضل، ولا التعصب لقائل على قائل؛ لأن من طلب عيبا وجده..."
(الشنتريني، 1997، صفحة 16)

ويقول في موضع آخر:

" وإن ظفرت بمعنى حسن أو وقفت على لفظ مستحسن ذكرت من سبق إليه وأشرت إلى من نقص عنه وازداد عليه. ولا أقول أخذ هذا عن هذا قولا مطلقا فقد تتوارد الخواطر ويقع الحافر حيث الحافر إذ الشعر ميدان والشعراء فرسان..."(الشنتريني، 1997، صفحة 08)

ومؤدى الكلام أن رأي ابن بسام منبثق من موقف نقدي متميز يقارب النص الأدبي بعيدا عن الهوى والتعصب، بل يعد كلامه هذا ترسيخا للخصوصية النقدية التي اتسم بها النقد بالغرب الإسلامي، والتي من أبرز مميزاتها؛ هذا المسلك الطريف المؤسس على مذهب نقدي ينم عن ذوق ابن بسام ومراسه بالتراث الأندلسي في زمانه.

ومصادر ابن بسام في ذخيرته كثيرة ومتنوعة جمعت بين مختلف العلوم للدلالة على ثقافته الواسعة وإحاطته التامة بالمخزون التراثي الأندلسي في الميادين والحقول المعرفية المختلفة. لذلك نحسبه من العلماء النقاد الموسوم ين بعمق المعرفة والحس النقدي والخبرة والمراس بالتجارب الإنسانية في غرب العالم الإسلامي.

4.خاتمة:

وبناء على ما سبق ذكره؛ نستطيع القول: إن حركة التأليف في المغرب والأندلس كانت محكومة بالتيار المشرقي؛ وهذا ما يدل على المدى الكبير لوشائج الصلات بين المنتوجالمشرقي ومنتوجومخزون الغرب الإسلامي، فالتراث الأدبي في شرق العالم الإسلامي وغربه؛ فيض من بحر زخارٍ تمتد مجاريه الموصولة بالجسور المحكمة التي تربط شرق العالم الإسلامي بغربه فكرا وثقافة وإبداعا.

ويمكن تجسيد هذه الجسور في اللغة والدين والمعتقدات والأعراف والتقاليد الموروثة، فضلا عن مظاهر التأثر والتأثير وما يطرأ على الفكر والإبداع في أطوار تاريخ الأدب العربي من مستجدات تقتضي مواكبة العصر ومعانقة الواقع المعيش واستثمار التجارب الإنسانية في كل قطر انطلاقا من خصوصيات البلد وأهله والظروف الفاعلة في المنتوج التراثي وما يصاحبها من العوامل السياسية والدينية والفكرية والاجتماعية، من هنا نلاحظ تعدد الوجهات واختلاف المسارات في التأليف والإبداع المتصل بشرق العالم الإسلامي مع العلم بأن ينبوع المخزون التراثي العربي هو التراث الجاهلي قبل الإسلام ثم القرآن الكريم، وما فتَّحه للمبدعين والمؤلفين من الآفاق الرحبة التي سبحوا في فضائها الفسيح المترامي الأطراف رغبة في التجديد واحتضان البيئات على تعددها واختلافها..

من هنا، تتضح لنا معالم جسور التواصل بين أدب المشرق وأدب الأندلس والمغرب؛ تلك الجسور التي ظلت منذ القديم فاعلة في شحذ القرائح واستنهاض الهمم وخصوبة الفكر والوجدان، بل إن هذه الجسور تبدو في تجلياتها الكبرى القائمة على جدلية النقد والإبداع وعصارة التجارب الإنسانية التي يستوفيها كل من كتاب " العقد الفريد" وكتاَب " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، وذلك بالغرف من المصب الوافي والمعين الصافي؛ الذي يَنْسَابُ رقراقا من الفكر العربي واللغة العربية والقرائح الإنسانية الدالة على أن طبيعة الإنسان صنيعة الإحسان في الشرق والغرب سواء بسواء. فالتلاقح الثقافي لا ينكر، والتفاعل بين الثقافات حقيقة قائمة لا غبار عليها وتبقى للشرق خصوصياته وللغرب مميزاته؛ كما قال أحد المصلحين: "الشرق شرق والغرب غرب". وبينهما من وشائج القربى والصلات الوثقى التي لا يدفعها دافع ولا ينازع فيها منازع.

فالمصنفات المختلفة في هذا الاتجاه لها أهمية قصوى؛ لأنها السجل التاريخي والحضاري الكفيل بتوثيق أخبار السلف والشعراء والموروث الثقافي في جميع ألوانه، فضلا عن الإعراب عن طبيعة العلاقة القائمة على التأثر والتأثير بين جميع أقطار العالم الإسلامي شرقا وغربا.

وفي الأخير وجب التأكيد على أن جسور التواصل بين شرق العالم الإسلامي وغربه لا تقتصر على الإبداع الشعري وحده؛ بل تتعداه إلى فنون ومعارف كثيرة لا مجال لتعدادها هنا. فصحة التقابل ممكنة ومتاحة بين كتاب " العقد الفريد" لابن عبد ربه وكتاب " عيون الأخبار " لابن قتيبة الدينوري من جهة؛ و" يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر " لأبي منصور الثعالبي و" الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني ومن جهة ثانية.

5.قائمة المراجع

- ابن بسام الشنتريني. (1997). الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. بيروت: دار الثقافة.
- ابن عبد ربه. (1404هـ). العقد الفريد. بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو منصور الثعالبي. (1983). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. بيروت: دار الكتب العلمية.
- حازم عبد الله خضر. (1393هـ). ابن بسام وكتابه الذخيرة. الموصل: كلية الآداب.
- خير الدين الزركلي. (2002). الأعلام. دار العلم للملايين.
- عبد المنعم محمد خفاجي. (1992). الأدب الأندلسي، التطور والتجديد. بيروت: دار الجيل.
- عمر رضا كحالة. (د.ت). معجم المؤلفين. بيروت: دار إحياء التراث العربي .
- ياقوت بن عبد الله الحموي. (1993). معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. بيروت.